التصـوف والطرقيـــة

نور الهدى الكتاني*

إن موضوع التصوف والطرقية من أشد المواضيع وأكثرها تعقيدا واختلافا وتباينا في الآراء، ولذلك سأحاول في مقالي هذا أن أساهم في رد الاعتبار لأناس، كثيرا ما يتهمون بأبشع التهم وأقدحها وهم رجال التصوف والطرقيون.

تعريـــف التصوف

إن التعريفات للتصوف كثيرة ومتعددة ولا يمكن حصرها، وقد تختلف من ناحية المنطلق الذي ينطلق منه صاحب التعريف، ولذلك نجد الحافظ أبا نعيم المتوفى سنة 430 هـ في كتابه: "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء"[1] يوصلها إلى ثمانمائة تعريف، فكلما ترجم لصحابي أو تابعي إلا ويذكر أثناء هاته الترجمة تعريفا للتصوف، وكذلك فعل عبد الحق البادسي صاحب كتاب: "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف"[2] الذي كان حيا سنة 722هـ فلا يعرف بأحد من الصلحاء إلا ويثبت له تعريفا للتصوف.

أما محتسب الصوفية الشيخ زروق فقد أوصل هذه التعريفات إلى ألفين، ولذلك نجده يقول: "قد حد التصوف ورسم بوجوه نحو الألفين ترجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى... وقال أيضا "وإن الاختلاف في الحقيقة الواحدة إن كثر دل على بعد إدراك جملتها". وقال العالم الصالح أبو القاسم

---

* أستاذة باحثة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك.

[1]- يقع الكتاب في عشرة مجلدات ويضم ثمانمائة ترجمة ابتداء من أبي بكر الصديق إلى سائر الصحابة ثم التابعين ثم تابعي التابعين ثم من يليهم إلى عصره

[2]- كان حيا سنة 722هـ، هذا التأليف يتكون من 151، وأثناء ترجمة المؤلف لإسماعيل الخزرجي يقول عنه: كان صوفيا عالما، إن التصوف تعليم وتسليم، المصدر:ص/133.

علي بن محمد بن غجو في كتابه: "ضياء النهار"[3] (الصحابة كان عملهم بالله وبالآخرة وكانوا أهل خوف وحزن ومجاهدة ومراقبة، وقناعة وصبر وتوكل وانقطاع إلى الله وإخلاص عميم، وكانوا مشغولين بتحصيل العبادة من جهاد ومجاهدة النفوس، والإيثار والبحث عن مكارم الأخلاق والتوحيد، والإخلاص واليقين والذكر، وهذا هو علم التصوف. وكانت تتعاطاه الصحابة من الذكور والإناث، فالعلم الواجب على كل مكلف هو ما كانت تتعاطاه الصحابة في وقته، وذلك علم التوحيد والإخلاص، وسائر مقامات التصوف من التوبة إلى انقضاء غايته).

إن التصوف هو علم له أصوله وقواعده وله مناهجه الفكرية، ووسائله وأهدافه وأن الغاية منه هي رفع مستوى الإنسان من الأرضية إلى مقام السمو والاعتبار، وتأهيله لأن يصبح قلبه متعلقا بربه، وجوارحه كلها مهيأة للعمل المستمر من أجل الوصول إلى الغايات السامية.

وبدراسة تاريخ الإسلام من عهد الخلفاء الراشدين نلاحظ أن أول شخص يمكن أن نجعله إماما للتصوف ورائدا في مجال أفكاره، هو سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأنه في مجموعة أقواله، وأفكاره في الزهد وفي الإمامة، وفي الأخلاق، أوفي سلوكه الاجتماعي والسياسي، كان خير من يمثل التصوف في أسمى مظاهره.

فبعد أن طغت على المجتمع الإسلامي بسبب تضخم الفتوحات واختلاط الأجناس، موجة من إيثار المصالح الشخصية وحب الدنيا، وأصبح التفسخ يهدد هذا المجتمع، بقيت هناك جبهة واحدة تمثل الالتزام المطلق لتعاليم النبي سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، هذه الجبهة يمثلها علي بن أبي طالب. ويؤكد هذا، الإمام ابن ليون التجيبي[4] في كتابه: "الإنالة العلمية" حيث يقول إن أول من تكلم في علوم التصوف علي[5]. وبعد سيدنا علي أصبح التصوف مجرد سلوك إسلامي، وأفكار وآراء تعتقدها نخبة من التابعين ومن العلماء، إلى أن جاء القرن الرابع حيث أصبح علما مستقلا على يد أبي نصر السراج الطوسي، المتوفى سنة 378هـ الذي ألف كتاب "اللمع"[6] وهو أول كتاب يؤرخ لهذا العلم، حيث يتحدث فيه مؤلفه عن ماهية التصوف، ونعته وعلوم الباطن ورغم كثرة التعريفات التي أعطيت للتصوف، فلا بد أن نأخذ معنى عاما وشاملا عرف به أبو الحسن الشاذلي التصوف حيث يقول:

---

[3]- نقل هذا الكلام الشيخ عبد الحي الكتاني المتوفى سنة 1383هـ في كتابه: التراتيب الإدارية الذي يقع في مجلدين 270/2.

[4]- ابن ليون التجيبي من العلماء الأندلسيين ازداد بألمرية وبها توفي سنة 750هـ، له أكثر من مائة تأليف.

[5]- وهذا خلافا لما ذكره أ دم متز في كتابه: "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري" من أن أبا سعيد الخراز هو أول من قال بالفناء والبقاء

[6]- حقق هذا الكتاب الدكتور عبد الحليم محمود والأستاذ طه عبد الباقي سرور وذلك سنة 1960م .

التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية[7]. وقد أنشد بعض المتصوفة كما في "تحفة الإخوان"[8].

ليْس التصوف لبس الصوفِ ترقِعه .... ولا بُكاؤكَ إن غنى المغنونا

ولاصياحٌ ولا رقصٌ ولا طربٌ .... ولا تَغاش كأن قد صرت مجْنونا

وأن تُرى خاشعا لله مكتئبا .... على ذنوبك طُول الدهْر محزونا.

ولقد أحسن محتسب الصوفية الشيخ زروق حينما وضع تقسيما لأنواع التصوف حيث قال: "للعامي تصوف حوته كتب المحاسبي ومن نحا نحوه، وللفقيه تصوف حام حوله ابن عربي في سراجه، وللعابد تصوف نبه عليه القشيري في رسالته، وللناسك تصوف حواه "القوت" والإحياء، وللحكيم تصوف أدخله الحاتمي في كتبه، وللمنطقي تصوف نحا إليه ابن سبعين في تآليفه، وللطبائعي تصوف جاء به البوني في أسراره، وللأصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه، فليعتبر كل بأصله في محله[9].

ويمكننا تبعا لما سبق أن نفرق بين نوعين من التصوف:

– تصوف سلوكي، وهو الذي يعنى بالجانب التربوي والإرشادي ويهتم بالجانب الروحي ويسعى إلى تزكية النفس بمراقبتها سرا وعلانية.

– وتصوف عرفاني، وهو ثمرة لمواهب روحانية وتجليات إلهية، ويتناول علوم الأحوال التي هي مواريث الأعمال الصالحة، وفيه تعمق في بعض المقامات ووصف لها بتعابير وألفاظ، فيها غموض واشتباه وإيهام، لذلك سيء الظن بهم وكثر الهجوم عليهم من جانب فقهاء أهل الظاهر الذين ليسوا بصوفية والذين يصطنعون منهج التأويل في نفس الوقت[10].

تطور التصوف إلى طرقية

تحول التصوف من مرحلة التفكير والسلوك الشخصي، إلى مرحلة التنظيم الاجتماعي والسياسي في حركات وهيئات أصبحت تدعى بالطرق الصوفية. وقد كان الباعث على انتقاله إلى هذه المرحلة هو ظواهر الانحلال الخلقي والأفكار الدخيلة التي أصبحت تهيمن على المجتمعات الإسلامية، وتشيع فيها

---

[7]– رسالة النصرة النبوية لأهل الطريق الشاذلية .

[8]– تحفة الإخوان ببعض شرفاء وزان لحمدون الجوطي المتوفى سنة 1191هـ. وهو محقق .

[9]– قواعد التصوف.

[10]– قال السيوطي في كتابه: "تنبيه الغبي إلى كفر ابن عربي": وقد سأل بعض العلماء بعض أكابر الصوفية في عصره: ما حملكم على أن اصطلحتم على هذه الألفاظ التي يستشنع ظاهرها؟ فقال: غيرة على طريقنا هذا أن يدعيه من لايحسنه ويدخل فيه من ليس أهله.المصدر/50.

ظواهر الانحراف، فكان لابد للصوفية من أن يختاروا توحيد صفوفهم عن طريق الطرق، وذلك لتعدد سبل الزيغ والفساد والضلال. وهناك تعاريف كثيرة للطريقة الصوفية، فالطرقيون يعرفونها "بأنها مشرب إسلامي يختص بالناحية الروحية في الإسلام، ولها كيانها الذاتي، وشخصيتها المستقلة ولها أسانيدها الموصولة بكبار الرجال ثم بالرسول صلى الله عليه وسلم ولها آدابها وتقاليدها وأورادها وأحزابها وعاداتها"[11].

وهناك كذلك من يعرف الطريقة بأنها الوسائل المتعددة إلى الغاية المثلى وهي الوصول إلى الله، أو هي الفروع المتعددة للدستور الإسلامي الأعلى[12]. أما ظاهرة تعدد الطرق الصوفية فيرجعه أولوا الأمر تبعا لاجتهاد أئمتها في اختيار أساليب التربية والاستعداد، فهي أقرب إلى تعدد المذاهب الفقهية، إذ أن الطرق جميعا فروع متعددة من دوحة واحدة هي دين الله، فلكل طريقة خصائصها ومميزاتها في الحدود الشرعية. ولقد سميت هذه الطرق بأسماء مؤسسيها وأئمتها وانتشرت، ولا نجد أحدا من أهل الطرق أحل حلالا أو حرم حراما، وإنما هناك اختلاف في الأمور الاجتهادية لا يضر الدين في شيء، فالعلامة محمد الحافظ التيجاني شيخ الطريقة التيجانية في مصر، يعتبر الطرق الصوفية بمثابة مدارس أخلاقية لتهذيب النفوس وترويضها عمليا على الطاعة[13]. والطريقة الصوفية تسمى أيضا جامعة الشيخ والمريد. ولقد نشأت الطرقية في المغرب بكيفية تدريجية، فكانت في أول الأمر لا تتجاوز اجتماع المريدين على الشيخ وإنصاتهم لأحاديثه الدينية والثقافية، تلك الأحاديث التي كانت تقربهم إلى الله وتكون سببا في تفتح وعيهم وتدعوهم إلى ملازمة الربط في سبيل الله، استعدادا لخوض معركة الجهاد ضد الأجانب، وبهذا الاعتبار يمكنني أن أقول إن الطرقية ابتدأت بالمغرب في القرن السادس الهجري، ذلك أننا نجد المؤرخ الكانوني في كتابه: آسفي وما إليه[14] يقول: "كان للشيخ أبي محمد صالح رضي الله عنه زوايا ورباطات بالمشرق والمغرب، وهذا الرباط بآسفي وهو مركزه الوحيد، صار له الصيت في الآفاق، وشدت إليه رحلات الرفاق، فكم تخرج فيه من الأئمة الأعلام، والشيوخ المرشدين العظام الذين كانوا نجوما يهتدي بهم الأنام، وقد ظلت هذه الزاوية بآسفي شاغلة فراغا كبيرا طيلة النصف الثاني من القرن السادس وكامل السابع والثامن والتاسع"[15].

---

[11]- مجلة الإسلام والتصوف العدد 4.1 سنة 1950م وتصدرها مشيخة الطرق الصوفية في مصر.

[12]- نفس المرجع.

[13]- مجلة طريق الحق تصدرها الطريقة التيجانية بمصر العدد1 السنة14 يونيو 1964.

[14]- توفي الكانوني بالبيضاء سنة 1357هـ وقد طبع الكتاب بمصر سنة 1935م

[15]- توفي الشيخ أبو محمد صالح سنة 631هـ .وهو مدفون بآسفي .

– **نشأة الزوايا:** هذا الإسم خاص بالمغرب ويرادفه بالمشرق الربط والخوانق، وهي محل اجتماع المسلمين من أجل أداء الصلوات وتلاوة القرآن الكريم وحديث الرسول. ولقد لعبت الزوايا دورا كبيرا في المجتمع الإسلامي، ذلك أنها كانت ملجأ الغرباء والفقراء ومخازن للسلاح أيام المقاومة والاستعمار، كما أنها قامت بنشر الثقافة والعلم والدين لفترة طويلة.

– **دور الطرقية في نشر الإسلام ومواقفها من الاستعمار:** للطرقيين دور كبير في نشر الإسلام، فالطريقة التيجانية هي التي بفضلها انتشر الإسلام في جنوب نيجيريا، وقاومت اللادينية في تركيا، وحطمت تمثال مصطفى كمال، كما نشرت ذلك جريدة السعادة التي كانت لسان حال المستعمر الفرنسي بالمغرب والطريقة الكتانية أول من دقت ناقوس الخطر أمام الشعب المغربي ـ خطر الاستعمار الفرنسي والإسباني والدولي ـ وذلك إثر رجوع مؤسسها الشيخ محمد الكتاني من رحلته الحجازية[16] تلك الرحلة التي رأى فيها الانقلاب الفكري واللغوي الذي أحدثه الاستعمار الفرنسي والإنجليزي بالجزائر وتونس ومصر، وقد كان الشيخ محمد الكتاني كذلك أول من طالب بتأسيس مجلس الأمة في المغرب.

فالطرق الصوفية هي التي صمدت عبر التاريخ لكل القوى العالمية التي حاولت فكريا أو حربيا القضاء على الإسلام ورسالته، وتأكيدا لهذا نجد بطل الريف الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي يقول: "إن الطرقيين كانوا وما يزالون في مقدمة أعداء الاستعمار ومكافحته، وهم وحدهم الذين قامت على أكتافهم جميع ثورات التحرير بالمغرب العربي كله، وإن فيهم من عانى آلام النفي والتشريد والضغط في سبيل الله والوطن" [17]. وحينما كانت الحركة الوطنية تحارب الطرقيين، وتتهم شيوخ هذه الطرق بالتعاون مع الاستعمار، قام أمير البيان شكيب أرسلان بزيارة إلى المغرب سنة 1930 ألح فيها على الشباب إيقاف حملتهم على الطرقيين، والاهتمام بما هو أهم من المطالب السياسية والحقوق الوطنية، وبين أن الطرق الصوفية ليست كلها على ضلال، وأن بعضها يقدم خدمات للإسلام في افريقيا السوداء، وسجل هذا في تعاليقه السياسية على كتاب "حاضر العالم الإسلامي"[18]. وإذا كان من الصوفية شخص جاهل أو مسترزق بتصوفه فيجب أن يوزن هذا الشخص بميزانه الشخصي لا بميزان التصوف، ولا يؤاخذ الطرقيون جميعا بسبب خطأه.

---

[16]– ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد، تحقيق نور الهدى الكتاني صدرت عن دار ابن حزم بلبنان سنة 2005م.

[17]– مجلة المسلم كانت تصدر بمصر العدد الحادي عشر السنة الثامنة 13 ديسمبر سنة 1958م .

[18]– ألف هذا الكتاب لوثروب ستيوارت، وترجمه عجاج نويهض وعلق عليه شكيب أرسلان المتوفى سنة 1964م .

حقيقة نجد أن هناك أتباع بعض الطرق يعتقدون أن شيخهم أفضل من بقية الشيوخ سواء منهم المعاصرون أو الأقدمون، كما أن بعض الطرق الصوفية تستعمل الطبل والمزمار في حلقة الذكر، لكنها تعلل هذا بأنه مجرد وسيلة لإثارة حماسة المريدين ليزدادوا تعلقا بربهم وذكرا له.

أما البدع الضالة التي ترتكبها بعض الطوائف، فقد وقع الإجماع على إنكارها من العلماء والصوفية كبدع عيساوة واحمادشة، ومن مظاهر الأولى أنها تأكل اللحوم النيئة، ومن بدع الثانية ضرب الرؤوس بالكرات الحديدية ضربا يهشمها ويسيل دماءها على الوجوه والثياب. ولقد كان المستعمرون الفرنسيون، يشجعون هذه المناظر ويستدعون السياح لزيارة المغرب ومشاهدتها، ليستدلوا بها على أن المغرب بلد متخلف يجب استعماره لمدة طويلة، ولقد كتب العلماء عرائض إلى الملك محمد الخامس رحمه الله يطالبون فيها بمنع هاتين الطائفتين من نشاطهما الضال والاقتصار على أوراد شيخهما سيدي محمد بن عيسى وسيدي علي بن حمدوش[19]. ولاننسى أن الطرقية الصحيحة بالمغرب لم تنج من منتقدين، كالدكتور تقي الدين الهلالي في ذم الطريقة التيجانية، ومحمد بن الموقت المراكشي في رحلته المراكشية، ومحمد الزمزمي بن الصديق في انتقاده للطريقة التجانية وهي كتب وقع الرد عليها من لدن علماء هذه الطرق مما يطول ذكره.

وإن التجاوزات التي تقع اليوم عند بعض الطرق الصوفية، فيمكنها أن تقع في كل وقت وحين، وقديما قال أبومدين الغوث وهو من رجالات القرن السادس الهجري:

واعلم بأن طريق القوم دارسة...... وحال من يدعيها اليوم كيف ترى.

[19]- وقع هذا المنع من طرف الملك محمد الخامس سنة 1933م .